مكسيم رودنسون... قال كلمة حق.. وزاد الناس علماً ومعرفة

داود تلحمي

في المرحلة التي تلت مباشرة الحرب الإسرائيلية التوسعية في العام ١٩٦٧، تزايد الاهتمام الدولي بالصراع العربي- الإسرائيلي، ولاحقاً بالنهوض الوطني الفلسطيني، الذي جسّدته المقاومة الفلسطينية التي تصاعدت، بعد ذلك، ضد الاحتلال. وشمل هذا الاهتمام مجال الكتب والأبحاث، التي انتشرت في العديد من دول العالم لتوضيح معطيات هذا الصراع، الذي كان خافتاً ومجهول المعطيات إلى حد كبير لدى الجمهور الواسع في العديد من دول العالم بين العامين ١٩٤٨ و١٩٦٧.

ومن بين الأسماء التي برزت في تلك الفترة بين الكتاب المختصين في أنحاء العالم اسم المستشرق الفرنسي، الروسي الأصل، مكسيم رودنسون ... الذي رحل في أواخر شهر أيار/مايو المنصرم، عن ٨٩ عاماً.

***

مكسيم رودنسون كتب، قبل زهاء الأربعة عقود، مقالاً مطولاً في عدد خاص بالصراع العربي - الإسرائيلي من مجلة «الأزمنة الحديثة»، التي كان يشرف عليها الفيلسوف والأديب الفرنسي ذائع الصيت جان بول سارتر. وكان المقال بعنوان «إسرائيل...واقع استعماري»، وتصدّر العدد الخاص الضخم من المجلة، الذي رأى النور، بشيء من الصدفة، في نفس فترة الحرب العام ١٩٦٧، فلقي اهتماماً أكبر مما توقعه سارتر عندما بدأ بالإعداد لهذا العدد في العام ١٩٦٥. وشارك في العدد الخاص كتاب عرب، من جهة، وإسرائيليون وصهاينة، من جهة أخرى.

وكانت مساهمة مكسيم رودنسون الوحيدة التي لا تندرج تحت هذه التصنيفات. فهو ليس عربياً طبعاً، ولا إسرائيلياً. وهو، وإن كان من أصول دينية يهودية، فإنه كان علمانياً ويسارياً معادياً للصهيونية. وفي مقالته المشار إليها، خلص، بعد تحليل تاريخي جاد وموثق، إلى الرد بالإيجاب على إشارة الاستفهام التي وردت في عنوان المقالة. أي إنه اعتبر إسرائيل نتاج واقع أو مشروعاً استعمارياً، مهما كان الغطاء الأيديولوجي والديني لهذا المشروع. واعتبرت مقالة رودنسون في ذلك العدد من مجلة «الأزمنة الحديثة» من بين أهم ما كُتب في تلك الحقبة في بلدان الغرب في الدفاع عن وجهة النظر المناهضة للصهيونية ولمشروعها الاحتلالي التوسعي. وقد ترجمت المقالة المطولة بعد ذلك وصدرت، ككتاب، في العديد من لغات العالم، بما فيها اللغة العربية. ولقيت اهتماماً كبيراً في الأوساط المتابعة، وسخطاً كبيراً، بالطبع، من قبل الأوساط الصهيونية والإسرائيلية.

***

ولكن هذه لم تكن مواجهة رودنسون الأولى مع الفكر الصهيوني. فهو كان ينشط قبل حرب العام ١٩٦٧ بسنوات، في ندوات ومساهمات كتابية، ضد المشروع الصهيوني ومحاولات إظهاره كمشروع «تحرري» لما يسمى تجاوزاً بـ«الشعب اليهودي».

فرودنسون، كمفكر ماركسي ملتزم، لم يكن يقبل بفكرة «الشعب اليهودي»، التي كان الماركسيون يعتبرونها فكرة رجعية وغير علمية، لأنها تخلط بين الدين والهوية القومية. صحيح أن رودنسون لم يعد عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي منذ العام ١٩٥٧، حيث انتهت علاقته، التي دامت زهاء العشرين عاماً، بالحزب، مع العلم بأن والده كان قبله، أيضاً، عضواً في الحركة الشيوعية، وراح، مع زوجته، ضحية حملات التصفية في معسكرات النازية الألمانية لكونه كان شيوعياً ويهودياً في آن واحد، لكن من الواضح أنه بقي، بعد مغادرته للحزب، متمسكاً بأفكاره اليسارية والإنسانية الأساسية. وكان يعتبر نفسه «ماركسياً مستقلاً». ومن هذا المنطلق، ومن منطلق متابعته، كمستشرق ومختص بشؤون منطقتنا، واصل مناهضته للحركة الصهيونية وسياسات الدولة الإسرائيلية.

وكان رودنسون يروي أن غالبية اليهود الفرنسيين (ويهود أوروبا الغربية عموماً) كانوا، قبل وصول النازيين إلى الحكم في ألمانيا في العام ١٩٣٣، غير مؤيدين للحركة الصهيونية، إما انطلاقاً من مواقف سياسية يسارية أو ليبرالية، تنطلق من التمسك بالاندماج في المجتمع الفرنسي ومجتمعات أوروبا الغربية الأخرى (وهي عملية اندماج كانت تسير بخطى حثيثة خلافاً لما كان عليه الحال في بلدان أوروبا الشرقية)، أو، لدى بعض الأوساط المتدينة الأصولية، انطلاقاً من تعارض فكرة قيام الدولة اليهودية في هذه المرحلة مع المعتقد الديني اليهودي (وهو الموقف الذي تتبناه، مثلاً، جماعة ناطوري كارتا الشهيرة، التي يقيم عدد من أتباعها في القدس الغربية، لكنهم لا يعترفون بدولة إسرائيل ولا يشاركون في مؤسساتها وفي الانتخابات العامة فيها).

***

ففي ندوة نظمها الاتحاد العام لطلبة فلسطين، الحديث التشكيل آنذاك- في فرنسا، في إحدى القاعات العامة في باريس، في أيار ١٩٦٦ بمناسبة ذكرى «النكبة» الفلسطينية، تحدث مكسيم رودنسون عن وجهة نظره اتجاه المشروع الصهيوني، وأعرب عن مشروعية المطالبة الفلسطينية بالحقوق الوطنية، التي نال منها وأضرّ بها هذا المشروع. وبعد أن قامت عدد من الصحف الفرنسية بتغطية الندوة، انهالت الاحتجاجات وحملات التشهير، في العديد من المنابر، بالمنظمين والمحاضرين من قبل الأوساط الصهيونية والمناصرة لها. وكان المناخ السائد - آنذاك - في فرنسا أقرب إلى إسرائيل وأكثر تأثراً بآلتها الدعاوية. ونال رودنسون قسطاً كبيراً من التهجمات، لم يكن أقلها ذلك الاتهام الشهير لـ«اليهودي الكاره لذاته».

ولم تؤثر هذه الحملة وغيرها على قناعات ومواقف رودنسون من المشروع الصهيوني، فواصل كتاباته ونشاطاته. وكان من أبرزها، لاحقاً، كتابه «إسرائيل والرفض العربي: ٧٥ عاماً من التاريخ» في أواخر الستينات الماضية، وقد ترجم، أيضاً، إلى العديد من لغات العالم ... ومساهمته مع عدد من المستشرقين والمهتمين الآخرين بالصراع العربي- الإسرائيلي في تشكيل «جماعة البحوث والعمل من أجل حل المسألة الفلسطينية» في فترة ما بعد حرب ١٩٦٧ ... ولاحقاً كتاب «شعب يهودي، أم مسألة يهودية؟» في العام ١٩٨١ ... والعديد من الكتب الأخرى حول التاريخ والواقع الإسلامي وعلاقة العالمين العربي والإسلامي بالرأسمالية والفكر الماركسي.

وجدير بالذكر أن رودنسون كان يجيد أكثر من ثلاثين لغة، حية وميتة، من بينها لغات جنوب الجزيرة العربية، واليمن، ولغات القرن الأفريقي (الحبشة) القديمة. وكانت الأخيرة اختصاصه الأول في مقعد التدريس الجامعي العالي الذي كان يحتله في العمل الأكاديمي، والذي كان مجاله الأساسي.

وككل إنسان، ومفكّر، يمكن الاتفاق مع عدد من أفكاره والاختلاف مع بعضها، أو تبني اجتهادات أخرى بشأنها. ولكن ما لا يمكن تجاهله هو كون مكسيم رودنسون واحداً من أهم المستشرقين الغربيين الذين لم تكن تلوثهم النزعات الاستعلائية والاستعمارية، التي تناولها بشكل خاص مفكرنا البارز الراحل، الفلسطيني المولد والانتماء، إدوارد سعيد، في كتابه الشهير عن «الاستشراق». ولهذا، اعتبر إدوارد سعيد مكسيم رودنسون واحداً من الاستثناءات القليلة في حكمه القاسي على الاستشراق الغربي.

يبقى أن نشير إلى ميزة أخرى كان يتمتع بها المؤرخ وعالم الاجتماع الراحل، وهي ميزة يشاركه فيها مفكرنا إدوارد سعيد: فقد كان رجل علم دؤوباً، ملماً بمجالات واسعة وبمعرفة تتجاوز حدود اختصاصه وبقدرة هائلة على العمل البحثي الجاد. ففي منزله العادي في أحد أحياء باريس الهادئة، كانت الكتب تغطي كافة جدران الغرف والردهات والممرات وحتى الأرض نفسها، بحيث كان على الزائر أن يقفز فوق أكوام الكتب والمجلات العلمية حتى يصل إلى الكرسي الوحيد المعد لاستقبال الضيف. وعلى الرغم من هذا التراكم الهائل، كان بإمكان رودنسون أن يجد الكتاب أو المجلة التي يريد الاستشهاد بها بسهولة. وتمكن، في هذه المساحة العابقة برائحة الورق، أن ينجز العديد من المقالات والمؤلفات، التي سيبقى عدد منها مراجع علمية وتاريخية مهمة في مجالات عدة.

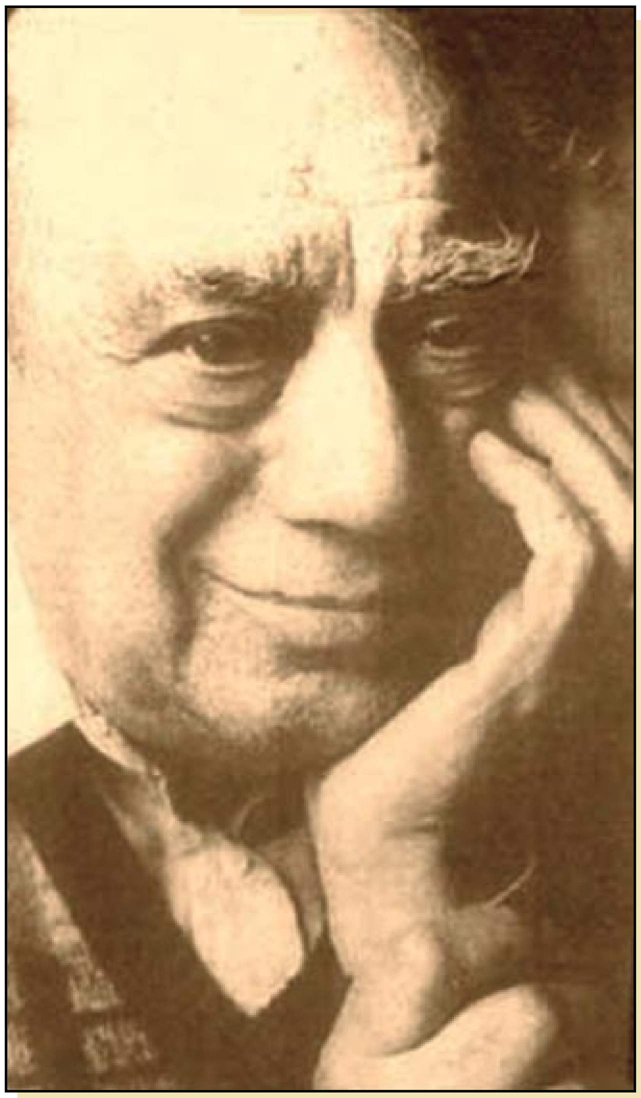

ولا أدري إذا ما دخل رودنسون في سنوات حياته الأخيرة في عالم تكنولوجيا المعلومات والحاسوب. فالمرة الأخيرة التي تحدثت فيها معه كانت في العام ١٩٨٩، حين كانت لي زيارة قصيرة للعاصمة الفرنسية، فتناولنا تطورات الوضع الفلسطيني والانتفاضة وانعكاساتها، وتحدث هو عن الجهود الجارية لإحلال السلام في منطقتنا، مؤكداً على ما كان يقوله دائماً من أنه مثقف وليس سياسياً، بحيث يكتفي بإيراد الوقائع والحقائق التاريخية ومبادئ الحل المتوازن والعادل دون الخوض في الآليات والتفاصيل التي هي من مجال الفعل السياسي.

ووصلتني منه، بعد ذلك بعقد تقريباً، في العام ١٩٩٨ تحديداً، رسالة عبر صديق مشترك إبان تنظيم الاحتفال العالمي بالذكرى المئة والخمسين لصدور «البيان الشيوعي» في العاصمة الفرنسية باريس، وهو الاحتفال الذي حضره هو والآلاف من المفكرين والمثقفين والمناضلين اليساريين من أنحاء العالم، ولم يتمكن بعض أعضاء الوفد الفلسطيني من المشاركة به بسبب المنع من السفر.

***

رحل مكسيم رودنسون، وقبله إدوارد سعيد، ولكن أعمالهما تركت بصمات قوية على المجالات التي غطياها. ومن واجب الأحياء والأجيال اللاحقة أن تنصف كل من قال كلمة حق وزاد الناس علماً ومعرفة، وبخاصة عندما كان مثل هذا العمل مكلفاً على الصعيد الشخصي ... على صعيد راحة البال، ورضا المؤسسة الحاكمة، سواء على صعيد البلد أم على مستوى المؤسسات الأكاديمية ووسائل الأعلام.